العصرُ العثمانيّ

تحديد العصر العثماني بين عصور الأدب العربي – في مرائي الباحثين:

واجه التأليف الأكاديمي والثقافي في تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني ونقده مجموعة من القضايا المنهجية التي تنوعت مواقف الباحثين في النَّظر إليها والتَّعبير عن تجلياتها في مؤلفاتهم وتُعدُّ قضيتا تحديد العصر العثماني وتقييم الأدب المنجز فيه من أبرز تلك القضايا.

تحديد العصر العثماني وتقييمه بين عصور الأدب العربي:

تأسست الدَّولة العثمانية في النِّصف الثاني من القرن السَّابع الهجري، الثَّالث عشر الميلادي، ومؤسس هذه الدَّولة هو (**أرطغرل بن سليمان شاه**) التُّركماني ت(٦٨٧هـ-١٢٨٨م) قائد إحدى قبائل التُّرك النَّازحين من سهول آسيا الصُّغرى.

لم يتأثر الأدب العربي بنشأة الدَّولة العثمانية وتاريخها اللاحق حتى مطلع القرن العاشر الهجري؛ لأنَّ هذه المرحلة من عمرها والممتدة نحو قرنين ونصف ظلت خارج الحدود العربية من جهة، وظلت الحياة الأدبية والثَّقافية ضعيفة في بيئاتها من جهة أخرى، وكانت معظم البلاد العربية في ظل هذه المرحلة تحت سلطة الدَّولة المملوكية (٦٤٨-

٩٢٢هـ)، التي اتخذت من القاهرة عاصمة لملكها، ممَّا جعل الباحثين يسمُّون هذه الحقبة من تاريخه بالعصر المملوكي.

تعاني المصادر والمراجع المعرفية الحديثة لدراسة الأدب في العصر العثماني من تأثرٍ عميق باختلاف مواقف مؤلفيها من تحديد العصر العثماني بدايةً ونهايةً، وتقييم الأدب المنجز فيه، ولابدَّ من الإشارة إلى اختلاف عابر لا يمكن عدُّه ذا أهمية يتعلق بتحديد بداية هذا العصر في عام ٩٢٢هـ الذي شهد دخول القوات العثمانية إلى الشَّام أو في عام ٩٢٣هـ الذي شهد دخولها إلى القاهرة.

تحديد بداية العصر العثماني والنَّظر في تداخله مع العصور السَّابقة:

في عام ٩٢٢هـ – ١٥١٦م انتصرت الدُّولة العثمانية على دولة المماليك في معركة مرج دابق شمال حلب، وفي العام التَّالي سقطت القاهرة عاصمة المماليك في أيدي المنتصرين الذين ضمُّوا البلاد المفتوحة إلى عاصمة مُلكهم إسطنبول، وبذلك غدت البلاد العربية جزءًا من أجزاء الدَّولة العثمانية ممَّا جعل العديد من الباحثين في تاريخ الأدب العربي ونقده يسمُّون هذه الحقبة من تاريخه بالعصر العثماني، ويتفقون على بدايته في عام ٩٢٢هـ على الرُّغم من معرفتهم أنَّ الحواضر العربية لم تدخل كلُّها تحت مظلة الدَّولة العثمانية في العام نفسه، وظلَّ قسمٌ منها يعيش حياة الاستقلال عن إدارة تلك الدَّولة.

مواقف الباحثين من القضية وتجلياتها في مؤلفاتهم:

للباحثين في مصطلح العصر العثماني، وتحديد بدايته والنَّظر في علاقته بالعصور التي سبقته أربعة اتجاهات:

الاتّجاه الأول:

إهمال العصر العثماني وتجاوز دراسة أدبه إلى العصر الحديث؛ ويرتكز هذا الاتِّجاه على إهمال العصر المذكور إهمالاً تنعدم فيه فرصة تصنيفه عصراً مستقلاً أو عصراً ملحقاً بغيره من عصور الأدب، من أمثلة ذلك إهمال المستشرق الفرنسي (**ريجيه بلاشير**) للأدب المنجز في العصر العثماني مسوِّغاً موقفه بضعف الثَّقافة والإبداع فيه بقوله: ((منذ أواخر القرن التَّاسع للهجرة جفَّ معين الحياة والإبداع الذَّاتي في الآثار المكتوبة بلغةٍ فصحى، فطويت بذلك صفحة من صفحات الثَّقافة الإنسانية، ولم توقد جذوة الأدب العربي إلا في منتصف القرن التَّاسع عشر الميلادي)) و يتابعه في رأيه (**أندريه ميكيل**) المستشرق الفرنسي بقوله: ((أدبٌ في ثبات هذا ما نسمعه كثيراً عن هذه الفترة الطويلة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثَّامن عشر)).

الاتجاه الثَّاني:

- ❖ يرى أصحابه أنَّ العصر العثماني جزءٌ من عصر أشمل يعود إلى مراحل تاريخية سابقة؛ ويدرسون أدبه ضمن دراساتهم المعنية بذاك العصر الأشمل، يقول **الدكتور (محمود الفاخوري)**: ((لم يختلف الدَّارسون في شيء اختلافَهم في تسمية هذه الحقبة وفي تحديد بِدئِها ونهايتها)).
- ❖ ويحاول الدكتور (**بكري شيخ أمين**) إيجاد حلّ للمسألة فيقول: ((إنَّ العصور تتداخل والآداب تتشابك والنَّماذج تختلط، وإنَّه ليس من سُورٍ حديدي بين أدبٍ وأدبٍ أو بين عصرٍ وعصر)).

❖ ويعدُّ موقف المستشرق الإيطالي (**كارلو نالينو**) من أوائل المواقف المعبرة عن هذا الاتّجاه في النَّظر إلى العصر العثماني جُزءاً من عصر أشمل، عاد لبدايته إلى منتصف القرن السَّابع الهجري، وسمَّاه (**عصر الانحطاط**) يقول: ((عصر الانحطاط من انقطاع الدُّولة العباسية سنة ٦٥٦هـ – ١٢٥٨م إلى استيلاء **محمد علي باشا** على مصر سنة ١٢٢٠هـ – ١٨٠٥م)).

❖ وقد جعل **أحمد حسن الزَّيات** العصر العثماني جزءاً من عصر أشمل فقال: ((العصر التّركي ويبدأ بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ وينتهي عند النهضة الحديثة ١٢٢٠هـ)).

❖ وجاء موقف **أحمد الهاشمي** ليؤكد ما ذهب إليه معاصره **الزَّيات**، كما جاء موقف **إبراهيم الكيلاني** وزملائه في كتابهم (**الوجيز في الأدب العربي**) معززاً هذا الرأي ؛إذْ عدُّوا عصر الدُّول الأعجمية من سقوط بغداد حتى مطلع القرن التَّاسع عشر.

❖ ويأتي موقف **حنَّا الفاخوري** في كتابه (**تاريخ الأدب العربي**) معززاً هذا الاتجاه، يقول: ((العهد التركي (٦٥٦-١٢١٣هـ / ١٢٥٨-١٧٩٨م) وعلى الرغم من إشارة المؤلف إلى انقسام العهد إلى طورين مملوكي وعثماني نجده يُجمل الحديث عن أدب الطَّورين في خطاب واحد مختصراً في ذكر أعلام الطور العثماني وأدبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً)).

❖ ويأتي موقف **نديم عدي** في كتابه (**تاريخ الأدب العربي**) منسجماً مع هذه الرؤية، ويتابعهم في ذلك أصحاب كتاب (**الموجز في الأدب العربي وتاريخه**) كما يتابعهم في هذا المنهج الدُّكتور (**عمر الدَّقاق**) في كتابه (**مواكب الأدب العربي عبر العصور**) إذْ يجعل عصر الانحدار ممتداً من سقوط بغداد إلى حملة نابليون على مصر.

❖ كما نجد الدكتور **شوقي ضيف** يؤكد فكرة دمج العصر العثماني في عصر أشمل، يعود به إلى مرحلة تاريخية تسبق سقوط بغداد بزمن طويل؛ فيرى أنَّ عصراً أدبياً طويلاً تلا العصر العباسي، وهذا عصر الدول والإمارات الممتدة من سنة ٣٣٤هـ إلى العصر الحديث؛ ويسوغ موقفه بضعف الأدب المنجز في هذه العصور من جهة ،وبتماثل ظواهره مع ظواهر الأدب في العصور السَّابقة من جهة أخرى.

❖ يقدم الدكتور **بكري الشيخ أمين** لكتابه (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني) بقوله: ((هذا كتاب في دراسة شعر عصري المماليك والعثمانيين جمعناه من محاضرات ألقيناها طوال سنوات ثلاث على طلاب السَّنة الرَّابعة من كلية الآداب من جامعة حلب)). فالدُّكتور **بكري الشيخ أمين** يقدم في كتابه دراسة واحدة لأدب العصرين.

الاتجاه الثالث:

☒ يرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ دراسة العصر العثماني مستقلاً مع تصنيفه ضمن عصر أدبي أشمل؛ لكنهم أقروا بتميز حقبتيه المملوكية والعثمانية، فجعلوا دراستهم لأدب العصر الواسع الذي يدرسونه في بابين أو قسمين، يختص الثاني منهما بأدب العهد العثماني كما فعل **أحمد أمين** وزملاؤه في كتابهم (**المفصل في تاريخ الأدب العربي**) إذْ جعلوا العصر العثماني واحداً من عصرين يشكلان العصر التركي الذي يمتد من سقوط بغداد ٦٥٦هـ إلى بدء النَّهضة الحديثة ١٢٢٠م، ثمَّ درسوا كلًّاً من العصرين بدراسة خاصة.

☒ ينسجم موقف الدكتور **عمر موسى باشا** في كتابه (**محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني**).

إذْ حدد العصريين عامي ٦٤٨ – ١٢١٣هـ وقال: ((استمر هذا العصر الذي سنتناول أدبه بالدراسة أكثر من خمسة قرون ونصف القرن من الزمن تقريباً)).

ثمَّ درس العصر المملوكي في الباب الأول، والعصر العثماني في الباب الثاني، وهذا ما فعله أيضاً **نعيم الحمصي في كتابه (الرائد في الأدب العربي)** إذْ جعل العصر العثماني جزءاً من عصر أشمل سمَّاه (**عصر الانحطاط**)، ولكنَّه أقرَّ بتميز أدبه بفوارق كثيرة، وخصَّه بدراسة محددة قدَّم لها بقوله: ((ينقسم هذا العهد إلى دورين: الأول هو الدُّور المملوكي، الثَّاني هو الدَّور العثماني، نتكلم عن كل منهما على حدة لما بينهما من فوارق في الحياة العامة لها أثرها في الأدب واللغة)).

وقد استبدل **الحمصي** في بحوثه اللاحقة تسميةَ عصر الدّول المتتابعة بتسمية عهد الانحطاط[1]، لكنَّه حافظ على منهجه بدراسة الدّور العثماني دراسة مستقلة، وضمَّ إلى العصر جزءاً من العصر العباسي.

- ☒ ويدرس الدّكتور **جودت الركابي** أدب العصر العثماني بتمييزه من الأدب في العصر المملوكي الذي سبقه على الرغم من جمعه لهما فيما سمَّاه عصور الانحدار.
- ☒ وينسجم موقف الدُّكتور **خالد إبراهيم اليوسف** مع هذا الاتجاه؛ إذْ يقر بوجود عصر عثماني متميز، لكنَّه يصنِّفه ضمن عصر أشمل تلحق به صفة الانحطاط، يقول: ((يقصد مؤرخو الأدب بالعصرين المملوكي والعثماني عصر الانحطاط؛ أي تلك الحقبة المظلمة في التاريخ الإسلامي العربي التي بدأت بسقوط بغداد في يد المغول بقيادة **هولاكو** ٦٥٦هـ – ١٢٥٨م، وانتهت مع حملة نابليون على مصر)).

---

[1] الباء تدخل على المتروك.

الاتجاه الرَّابع:

- يرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ العصر العثماني عصر أدبي ذو خصوصيات تميزه بين عصور الأدب العربي؛ وتعد كلمات الباحث **محمود الفاخوري** دقيقة في التَّعبير عن ضرورة الفصل بين العصرين المذكورين؛ إذ يقول: ((درجنا على الفصل بين الحقبتين المملوكية والعثمانية تبعاً للحكم السياسي لاختلاف كل منهما عن الأخرى في كثير من الجوانب؛ ولأنَّ بينهما فروقاً جوهرية في الحياة العامة من ثقافة وفكر وعلوم، وكل ذلك له أثره في الأدب واللُّغة)).
- يؤكد الدُّكتور **عمر موسى باشا** فكرة الفصل بين العصرين المذكورين، فيقول: ((وقد رأينا من الفائدة حين شرعنا في التأليف أن يخصص كل عصر بكتاب مستقل، يقتصر الأول منهما على العصر المملوكي بعهديه (البحري والبرجي)، ويقتصر الكتاب الثَّاني على العصر العثماني المتقدم والمتأخر)).
- ويعد المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) من أوائل الباحثين الذي عدوا العصر العثماني عصراً أدبياً خاصاً؛ فقد سمَّى الأدب العربي المنجز من قيام الدَّولة العباسية ١٢٣٢ – ١٧٥٠م إلى العصر الحديث الذي تحدد بدايته في منتصف القرن التاسع عشر الذي تحدد بدايته في منتصف القرن التاسع عشر= الأدب الإسلامي باللغة العربية وقسمه إلى خمسة عصور رابعها هو عصر الأدب العربي من سنة ١٥١٧م حتى أواسط القرن التاسع عشر.
- ويعد كتاب (**تاريخ آداب اللّغة العربية**) **لجرجي زيدان** ١٨٦١ – ١٩١٤م من أوائل المؤلفات العربية التي اعتمدت منهج تقسيم الأدب العربي إلى عصور تاريخية، والنَّظر إلى

العصر العثماني بوصفه عصراً أدبياً مستقلاً خصه زيدان بدراسة مستقلة ضمها الجزء الثالث من كتابه وابتدأها بقوله: ((العصر العثماني من فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٣هـ إلى مجيء نابليون إليها ١٢١٣هـ)).

- وينسجم موقف الدكتور **عمر فروخ** في بحوثه المعنية بتاريخ الأدب العربي مع مواقف أصحاب هذا الاتجاه؛ إذْ جعل الجزء الثالث من كتابه (**تاريخ الأدب العربي**) يتوقف عند الفتح العثماني الذي عدَّه معلماً بارزاً لتحديد عصور الأدب، كما جاء حديثه عن العصر العثماني محدداً وواضحاً في كتابه ((معالم الأدب العربي في العصر الحديث)).
- شهد موقف الدكتور **عمر موسى باشا** من قضية العلاقة بين العصر العثماني والعصر الذي سبقه تغيراتٍ ملموسةً منذ مطلع الثمانينات؛ فغير عنوان كتابه أكثر من مرة معززاً فكرة الفصل بين العصرين المملوكي والعثماني في دراسة الأدب العربي، وعلى الرُّغم من التَّردد الظَّاهر لعمر موسى باشا يبين موقفه الدَّاعي إلى الفصل المنهجي في دراسة أدب العصرين المملوكي والعثماني.

كما تأكد هذا المنهج في تحديد العصر العثماني عصراً متميزاً ومستقلاً بين عصور الأدب العربي في العديد من البحوث والدِّراسات التي عُنيت بأدبه في العقدين الأخيرين ومن أبرزها كتاب **محمود فاخوري** (**محاضرات في الأدب العثماني**) ،وكتاب الدكتور **محمد ألتونجي** (**الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في الأدب العثماني**).

و خلاصة الرأي في تحديد بداية العصر العثماني وتميزه:

لعله من المناسب في هذا المقام الإقرار بأهمية ترسيم حدود العصر بتمييزه عمَّا سبقه من عصور الأدب، وتحديد بدايته بانتقال السُّلطات في البلاد العربية منذ عام ٩٢٢هـ /

١٥١٦م إلى الدَّولة العثمانية، يرتبط ترجيح هذا الإقرار بالموازنة العلمية بين المواقف المختلفة للباحثين في تاريخ الأدب العربي ونقده من جهة، وبمجموعة من الأسباب الموجبة التي يمكن تلخيصها بما يأتي من جهة أخرى، وأهمُّها:

١. التغيرات النَّاجمة عن انتقال عاصمة الدولة من القاهرة في قلب البلاد العربية إلى إسطنبول البعيدة مع ضعف وسائل الاتصال.
٢. استبداد الولاة في البلاد العربية بعيداً عن الرقابة المركزية في العاصمة، وسياساتهم التي غلب عليها الظُّلم، وغابت عنها مطامح النَّهضة والإصلاح.
٣. منافسة اللغُّة التُركية للغة العربية في الحياة العامة ومرافقها.
٤. انتشار الأمية الواسع في المجتمع العربي.
٥. المتغيرات الجوهرية في موضوعات الأدب العربي وأغراضه.
٦. المتغيرات الجوهرية في الأساليب الفنية للأدب العربي واتجاهاتها.
٧. تراجع الحياة الاقتصادية في البلاد العربية، نتيجة لأسباب خارجة عن إرادة السُّلطات أحياناً، مثل: اكتشاف رأس الرجاء الصَّالح، وتحول بعض خطوط التّجارة العالمية عن الأراضي العربية.
٨. تردِّي الشعور النفسي الاجتماعي نتيجة لأسباب خارجة عن السّلطات أحياناً، مثل: سقوط الأندلس، ووصول أفواج من نازحيها بمشاعر اليأس والانكسار.
٩. تراكم عهود طويلة من الكوارث الصحية والعسكرية والاجتماعية وأَثَرُ كلّ ذلك في علاقة المجتمع بالأدب والثَّقافة.

أثرت هذه الأسباب في علاقة المجتمع العربي بالأدب والثَّقافة في العهد العثماني ممَّا يستدعي ضرورة دراسته مستقلاً منفصلاً عن غيره من عصور الأدب.